الوسطية شريعة الفطرة الإنسانية وجهة نظر مقاصدية

بقلم
د. عبد الرحمان هزرشي
كلية الحقوق والعلوم السياسية ـ جامعة الجلفة
hazerchi@yahoo.com

ملخص البحث

من الأسس الثابتة في الشريعة الإسلامية أنها جاءت موافقة للفطرة الإنسانية في كل ما أمرت به أو نهت عنه وأنها راعت ما جُبل عليه الإنسان من نزعات وميول مادية أو روحية فالإنسان مركب من مادة وروح وهي قد نظرت إليه من هاتين الزاويتين نظرة متوازنة فحققت له إشباع غرائزه وارتفعت به إلى الملكوت الأعلى دون إفراط ولا تفريط.

والفطرة الإنسانية هي الاستعدادات والميول و الغرائز التي تولد مع الإنسان دون أن يكون لأحد دخل في إيجادها وهي التي تجعل الإنسان قابلا للإدراك والفهم ويكون مستعدا للإيمان بالله، وإن من مقاصد الشريعة الإسلامية مراعاة الفطرة الإنسانية والمحافظة عليها، فالله الذي خلق الإنسان هو الذي أنزل القرآن فكانت الشريعة الإسلامية مراعية لفطرة الإنسان ومتناغمة مع ميولاته، قال تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.

وستناول في بحثنا هذا تعريف المصطلحات الواردة في البحث وهي : الفطرة الإنسانية، المقاصد الشرعية، والوسطية في المبحث الأول ونتعرض في المبحث الثاني للوسطية مقصد شرعي وفي المبحث الثالث نتناول مظاهر مراعاة الشريعة الإسلامية للفطرة الإنسانية.

مقدمة

إن الشريعة التي جاء بها القرآن هي الشريعة التي أنزلها الله لعباده وارتضاها لهم قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[1] وقال تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2] وهي المنهج الذي رسمه الله لبني آدم ولن يصلح البشر بل لن يصلح الوجود كله إلا باتباع هذا المنهج، لأنه لا يوجد أعلم من الله بالإنسان

[1] المائدة آية 03.
[2] آل عمران 85.

ليرسم له طريق الخير وطريق الحياة المطمئنة السعيدة.

ومن الأسس الثابتة في الشريعة الإسلامية أنها جاءت موافقة للفطرة الإنسانية في كل ما أمرت به أو نهت عنه وأنها راعت ما جُبل عليه الإنسان من نزعات وميول مادية أو روحية فالإنسان مركب من مادة وروح وهي قد نظرت إليه من هاتين الزاويتين نظرة متوازنة فحققت له إشباع غرائزه وارتفعت به إلى الملكوت الأعلى دون إفراط ولا تفريط.

والسؤال الذي يطرح في هذا السياق : كيف راعت الشريعة الإسلامية فطرة الإنسان ؟

وما هي مظاهر ذلك في التشريع ؟

وهل كان لعلماء المقاصد الشرعية جهود في تأصيل وسطية الشريعة الإسلامية وارتباطها بالفطرة الإنسانية ؟

ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في هذه الورقة منتهجين المنهج الآتي : استخدام المنهج التحليلي

الحرص على تدعيم البحث بالنصوص الشرعية من آيات وأحاديث نبوية وأقوال العلماء.

ببيان مواضع الآيات ورقمها وذكر السورة وتخريج الأحاديث النبوية.

الرجوع إلى المصادر الأصلية ما أمكنني ذلك.

وقد رأيت أن أنتهج الخطة التالية :

شرح المصطلحات الأساسية في البحث في المبحث الأول وإثبات وسطية الإسلام من وجهة نظر مقاصدية في المبحث الثاني وبيان مظاهر مراعاة الفطرة الإنسانية في المبحث الثالث.

المبحث الأول : شرح المصطلحات الأساسية في البحث

المطلب الأول : مفهوم الفطرة الإنسانية :

الفرع الأول : الفطرة في اللغة

الفطرة الخلقة التي خلق عليها المولود في رحم أمه [3]

والفطرة الابتداء والاختراع قال تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [4] وقال : (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)[5] وقال : (وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [6]

والفطرة الخلقة، قال الشاعر :

هون عليك قد نال الغنى رجل في فطرة الكلب لا بالدين والحسب [7]

فالفطرة في لغة العرب هي الخلقة الأولى والابتداء في كل شيء.

---

[3]. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت ط 1 سنة 1995 جزء 2 ص 13 (فطر).

[4]. سورة فاطر آية 1.

[5]. سورة الزخرف آية 27.

[6]. سورة يس آية 22.

[7]. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د ط، د ت، مج 5 ص 56 (فطر).

الفرع الثاني : الفطرة في الاصطلاح

اختلف العلماء في معنى الفطرة الواردة في بعض آيات القران الكريم وفي بعض الأحاديث النبوية على ثلاثة أقوال فمنهم من قال: إنها البداءة التي ابتدئ بها الإنسان من سعادة وشقاء، وقالت طائفة: إنها الإسلام وقال آخرون: هي الاستعدادات التي زود الله بها الإنسان لمعرفة الدين الحق والتعرف على الله تعالى، وقد احتجت كل طائفة بمجموعة من الأدلة تؤيد ما ذهبت إليه، وسنتناول هذه الأدلة بشيء من التفصيل.

الرأي الأول :الفطرة هي الخلقة ذهب جماعة منهم الزجاج والأزهري وهو مروي عن أحمد بن حنبل إلى أن الفطرة هي البداءة التي ابتدأ الله الخلق عليها، أي ابتدأهم للحياة والموت والشقاء والسعادة وإلى ما يصيرون عليه بعد البلوغ[8].

واستدل أصحاب هذا الرأي بمجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث منها :

1 . قوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [9] فالفاطر في كلام العرب المبتدئ والمنشئ، والفطرة : البداءة.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أنه قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما لصاحبه أنا فطرتها أي ابتدأت حفرها[10].

2. قوله تعالى : (وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [11] أي الذي خلقني.

3. قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)[12].

كما احتجوا بأحاديث منها :

1 . حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)[13] فالفطرة هنا الخلقة التي يخلق عليها الآدمي في الرحم من سعادة أو شقاوة [14].

2. حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (اللّٰهم يا داحي المدحوات و يا باني المبنيات و يا مرسي

---

[8]. القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ط ، د ت ج 13 ص 25.

[9]. سورة فاطر آية 1.

[10] حديث موقوف عن ابن عباس (البيهقي في شعب الإيمان السابع عشر في شعب الإيمان وهو باب في طلب العلم فصل في فضل العلم وشرف مقداره رقم 1757).

[11]. سورة يس آية 22.

[12]. سورة الزخرف آية 27.

[13] البخاري كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين رقم 1319، ومسلم كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم 4309.

[14]. القرطبي المرجع السابق مج 7 ج 13 ص 25.

الراسيات ويا جبار القلوب على فطراتها شقيها و سعيدها)[15] أي على خلقتها التي خلقها الله عليها.

وقد اعتمد أصحاب هذا القول على المعنى اللغوي ولقد وردت أكثر ما وردت كلمة الفطرة في القرآن الكريم بمعناها اللغوي كما مر في الآيات السابقة الذكر.

الرأي الثاني : الفطرة هي الإسلام

ذهب مجموعة من العلماء إلى أن الفطرة هي الإسلام منهم أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهم من الصحابة وابن شهاب الزهري ومجاهد وقتادة وهو رأي ابن كثير و الشوكاني وهو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل [16] واستدلوا بمجموعة من الأدلة منها:

1. الحديث الأول : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)[17] ثم يقول: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)[18].

2. الحديث الثاني : عن الأسود بن سريع قال : (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزوت معه فأصبت ظهرا، فقتل الناس يومئذ حتى قتلوا الذرية فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال أقوام جاوزهم القتل حتى قتلوا الذرية ؟ فقال رجل : يا رسول الله أماهم أبناء المشركين ؟ فقال: لا إنما خياركم أبناء المشركين. ثم قال. لا تقتلوا ذرية، وقال : كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها)[19].

3. الحديث الثالث : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتى علي زمان وأنا أقول : أولاد المسلمين مع المسلمين وأولاد المشركين مع المشركين حتى حدثني فلان بن فلان أن رسول الله سئل عنهم فقال : (الله أعلم بما كانوا عاملين) قال فلقيت الرجل فأخبرني فأمسكت عن قولي[20] وفي رواية سئل رسول الله عن أولاد المشركين فقال : الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين[21].

---

[15]. رواه ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب الدعاء ما جاء عن علي بن أبي طالب رقم 28942 وقال ابن حجر وهو موقوف على علي بن أبي طالب (فتح الباري، دار المعرفة، بيروت، د ط، 1379 ه، ج 11 ص 158.

[16]. القرطبي، المرجع السابق ج 13 ص25، الشوكاني، فتح القدير، دار ابن كثير، دمشق، ط 1، 1414 ه، ج 4 ص 387، ابن الجوزي عبد الرحمان، زاد المسير في علم التفسير، دار الفكر، بيروت ، ط 1، سنة 1987، مج 6 ص 151.

[17]. البخاري كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين رقم 1319، ومسلم كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم 4309..

[18]. سورة الروم آية 30.

[19]. البيهقي السنن الكبرى كتاب الأشربة و الحد فيها باب بيع الطعام في دار الحرب وأحمد في المسند مسند العشرة المبشرين بالجنة مسند المكيين حديث الأسود بن سريع.

[20] أحمد في مسنده مسند ابن عباس رقم 20575 وإسناده صحيح.

[21]. البخاري كتاب الجنائز باب ماقيل في أولاد المشركين رقم 6224، ومسلم كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم 6933.

4 . عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال في خطبته : (إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا : كل ما نحلته عبادي حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان، ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشا، فقلت يا رب إذا يثلغ رأسي فيدعه خبزة قال استخرجهم كما استخرجوك، وأغزهم نغزك وأنفق عليهم فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال : وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، ورجل عفيف فقير متصدق وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر الذين فيكم تبع لا يبتغون أهلا ولا مالا ، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، و رجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك) وذكر البخيل أو الكذاب والشنظير: الفحاش[22]، فالله خلق عباده حنفاء مسلمين وأن الشياطين تضلهم وتغويهم ليتغيروا من الإيمان إلى الكفر.

5 . الحديث الخامس : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الفطرة خمس أو خمس من الفطرة : (الختان والاستحداد وتقليم الأظافر ونتف الإبط وقص الشارب)[23] أو قال : خمس من الإسلام أي أن خصال الفطرة هي خصال الإسلام فدل على أن المقصود بالفطرة هو الإسلام كما جاء في بعض الروايات.

الرأي الثالث: الاستعداد لقبول الإيمان

وذهب أكثر المفسرين إلى أن الفطرة هي الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه ومنهم الزجاج وابن عطية والزمخشري وابن عبد البر وابن الجوزي والقرطبي والنووي و ابن القيم وابن عاشور والشريف الجرجاني.

قال الزمخشري : (الفطرة : الخلقة، والمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبا للعقل مساوقا للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن)[24].

وقال ابن عطية : (الفطرة هي العهد الذي أخذه الله على بني آدم حين أخرجهم نسما من ظهره وذلك معنى قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ

[22]. مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار رقم 2865.
[23]. مسلم كتاب الطهارة باب خصال الفطرة رقم 257.
[24]. الكشاف ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3 ، سنة 1987 ، ج 3 ص 479.

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)[25] قال : (والأصل الذي يعتمد عليه أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ويستدل بها على ربه ويعرف بها شرائعه ويؤمن به)[26].

قال النووي : (والأصح أن معناه أن كل مولود يولد متهيئا للإسلام فمن كان أبواه مسلمين استمر على الإسلام في أحكام الدنيا والآخرة . يعني إذا مات صغيرا . وإذا كان أبواه كافرين جرى عليه أحكامهما في أحكام الدنيا، وهذا معنى يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أي يحكم له بحكمهما في الدنيا، فإن بلغ استمر عليه حكم الكفر ودينهما فإن كانت سبقت له السعادة أسلم وإلا مات على كفره)[27].

وجاء في تفسير المراغي أن الفطرة هي الحال التي خلق الله الناس عليها من القابلية للحق والتهيؤ لإدراكه، فقد جعلهم الله جانحين للتوحيد وموقنين به لكونه موافقا لما يهدي إليه العقل ويرشد إليه صحيح النظر كما ورد في الحديث[28] : (كل مولود يولد على الفطرة... الحديث)[29].

ومما ذكره الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها) والفطرة أصله اسم الهيئة من الفطر وهو الخلق مثل الخلقة، كما بينه قوله التي فطر الناس عليها، أي جبل الناس عليها وخلقهم عليها أي متمكنين منها... ثم قال: ومعنى فطر الناس على الدين الحنيف أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها... مثل إثبات الوحدانية لله لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح [30].

ويرى الشيخ الطاهر بن عاشور أن معنى الفطرة هي الخلقة التي أوجد الله الإنسان عليها والنظام الذي خلق عليه المخلوقات وأن الشريعة الإسلامية جاءت للمحافظة على ذلك النظام فيقول : " الفطرة الخلقة أي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، ففطرة الإنسان هي ما خلق عليه الإنسان ظاهرا وباطنا أي جسدا وعقلا، فمشي الإنسان على رجليه فطرة جسدية فمحاولة أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية، فاستنتاج الشيء من غير سببه... خلاف الفطرة العقلية" [31].

وقد ذهب الإمام القرطبي إلى هذا الرأي بعد أن أورد خلاف العلماء في معنى الفطرة الوارد في قوله

---

[25]. سورة الأعراف آية 172.

[26]. المحرر الوجيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، د ت، ج 4 ص337.

[27]. صحيح مسلم بشرح النووي دار الفكر، بيروت، د ت، ج 8 ص 53

[28] تفسير المراغي،مطبعة الحلبي، القاهرة، ط 01، 1946، ج 11 ص 56.

[29]. سبق تخريجه الهامش 12.

[30]. تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، د ط، سنة 1984 ج 21 ص 90

[31]. مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ، د ط ، سنة 2006 ص 55.

تعالى : (فطرة الله التي فطر الناس عليها) ونقل عن ابن عبد البر اختياره له قال : قال أبو عمرو بن عبد البر : وهذا أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها [32].

واحتج القائلون بهذا بجملة من الأدلة منها :

1 . حديث أبي هريرة (كل مولود يولد على الفطرة...) فقالوا إن معنى كل مولود يولد على الفطرة أي يولد على خلقة تجعله يعرف ربه بها إذا بلغ مرحلة المعرفة وهذا ما يميزه عن البهائم التي لا تعقل ولا تتعرف على خالقها[33].

2 . إن معنى الفطرة لغة هو الخلقة والفاطر هو الخالق وبهذا يكون أقرب إلى المعنى الاصطلاحي الذي هو خلق الإنسان على هيئة سليمة قابلة للإيمان ومعرفة الله سبحانه وتعالى.

3 . إن المشاهد في حالات الناس والغالب في المؤمنين والكافرين يدل على أن المولود يولد على السلامة خلقة وطبعا وبنية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ولكنه بواسطة التنشئة في الأسرة والمجتمع يعتقد الكفر والإيمان بعد التمييز[34].

4 . إن ذكر الأبوين في الحديث " فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " يقصد به العوارض التي تعترض الطفل في تربيته فينشأ ويتربى على دين آبائه بدليل أن الوالدين لا يغيران الهيئة الراسخة في نفس الطفل لقبول الدين ولو تغيرت وزالت بالتربية والتنشئة لم تقم عليه الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب فيكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم " كل مولود يولد على الفطرة " أن كل مولود يولد على محبته لخالقه وإقراره بربوبيته فلو خلي وعدم المعارض لم يعدل عنه، فالمولود يولد محبة ما يلائم بدنه من المأكولات والمشروبات مما يساعده على نمو جسمه ويحافظ على صحته إلا أن تدخل على جسده ونفسه العوارض فيتغير طبعه ويكره بعضها كما خلق الله تعالى الحيوان محبا لما ينفعه مبغضا لما يضره[35].

5 . قالوا إن معنى قول الله (فطرة الله التي فطر الناس عليها) هي أن الشرائع التي جاء بها الإسلام هي من فطرة النفس البشرية أي من الفضائل المقبولة والعادات الصالحة المتأصلة في البشر والناشئة عن نزعة الخير في الإنسان ، فالكثير من الناس الصافية عقولهم والتي لم تكدرها لوثات الضلال ولم تخالطها شوائب الزيغ عن الهدى يقبلون هذا الدين ويقتنعون بشرائعه وأحكامه [36].

الرأي الراجح والتعريف المختار:

---

[32]. القرطبي، المرجع السابق، مج 7 ج 13 ص 28.

[33] النووي، مرجع سابق ج 16 ص 208، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، شرح صحيح البخاري،مكتبة الرشد، الرياض، ط 2، 2003م، ج 3 ص 373.

[34] ابن عبد البر،التمهيد، وزارة الشؤون الإسلامية المغربية، 1967 ج 18، ص 70.

[35] ابن القيم شمس الدين محمد بن أبي بكر، شفاء العليل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، د ت، ص 479.

[36]. ينظر في هذه الأدلة والحجج : القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مج 7 ج 13 ص 27 وما بعدها و ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار الكتب العلمية، بيروت ط 3 د ت ص 479 وما بعدها.

الفطرة هي مجموع الاستعدادات والميول و الغرائز التي تولد مع الإنسان دون أن يكون لأحد دخل في إيجادها. وهذا هو أحسن التعاريف لأنه تعريف يعطي للفطرة مفهوما للصفة التي يُخلق عليها الإنسان واستعداده لقبول الدين والإيمان والخير والشر والتعلم و التي يشترك فيها جميع البشر دون تدخل التربية و التنشئة الاجتماعية في ذلك.

المطلب الثاني : مفهوم الوسطية

الفرع الأول: الوسطية لغة وسطية مأخوذة من مادة وسط، وهى كلمة تدل على العدل والفضل والخيرية والنصف والتوسط بين الطرفين، يقول ابن فارس: الواو والسين و الطاء بناء صحيح يدل على العدل و النصف، وأعدل الشيء أوسطه ووسطه [37]، ويقول ابن منظور: وسط الشيء وأوسطه أعدله[38]

الفرع الثاني : الوسطية اصطلاحا :

عرفها الشيخ الطاهر بن عاشور :السماحة هي سهولة المعاملة في اعتدال، فهي وسط بين التضييق والتساهل، وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط[39]

وعرفها الشيخ يوسف القرضاوي: التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه[40].

فالوسطية فكر ومنهج وقيمة ومبدأ أصيل في الإسلام تؤطره مجموعة من النصوص و القواعد الشرعية، وهي قيمة جامعة لقيم العدل والخيرية والاستقامة، وهي المحدد للفعل الإنساني والمسدد للفكر والسلوك والمواقف أوهي كما قال محمد عمارة : "الحق بين باطلين والعدل بين ظلمين والاعتدال بين تطرفين والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال الرافض للغلو إفراطا وتفريطا لأن الغلو هو انحياز الغلاة إلى أحد قطبي الظاهرة ووقوف عند إحدى كفتي الميزان يفتقر إلى توسط الوسطية الإسلامية الجامعة"[41].

فالوسطية هي الاعتدال في أمور الحياة كلها من تصورات ومناهج ومواقف، وهي تحر متواصل للصواب في التوجهات والاختيارات، فالوسطية ليست مجرد موقف بين التشدد والانحلال كما يفهمه البعض، بل هي منهج فكري وموقف أخلاقي وسلوكي يسير عليه المسلم في عقيدته وعبادته وأخلاقه، وقد جاء في القرآن الكريم: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) [42] حيث تشير تلك الآية إلى

---

[37] معجم مقاييس اللغة ج 6، ص 108

[38] لسان العرب ج 7 ص 437

[39] مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون، تونس، د ط، 2006، ص 58.

[40] فقه الوسطية الإسلامية والتجديد ص 23

[41] معالم المنهج الإسلامي، ص 77.

[42] القصص آية 77.

أهمية الوسطية وتحقيق التوازن في الحياة. ومرجع الوسطية إلى الشرع فما وافق الشرع فهو الوسط فالتشدد في محله وسطية والرفق في محله وسطا كذلك.

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في كتابه الموافقات :"الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخِذ من الطرفين بقسط لا مَيْل فيه، الداخل تحت كسْبِ العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال[43].

المبحث الثاني : الوسطية مقصد شرعي

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور : " ونحن إذا أجدنا النظر في المقصد العام من التشريع نجده لا يعدو أن يساير الفطرة والحذر من خرقها واختلالها ولعل ما أفضى إلى خرق عظيم فيها يعد في الشرع محذورا وممنوعا وما أفضى إلى حفظ كيانها يعد واجبا، وما كان دون ذلك في الأمرين فهو منهي أو مطلوب في الجملة، وما لا يمسها فهو مباح، ثم إذا تعارضت مقتضيات الفطرة ولم يمكن الجمع بينهما في العمل يصار إلى ترجيح أولاها وأبقاها على استقامة الفطرة، فلذلك كان قتل النفس أعظم الذنوب بعد الشرك وكان الترهب منهي عنه وكان خصاء البشر من أعظم الجنايات "[44].

ويقول الشاطبي: " الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه.... بل هو تكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال كتكاليف الصلاة و الصيام والحج و الجهاد و الزكاة، وغير ذلك..."[45]

ويقول الشاطبي في شأن المفتي والنظر في المسائل:"المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال.

والدليل على صحة هذا أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة، فإنه قد مر أن مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين خرج عن قصد الشارع، ولذلك كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموما عند العلماء الراسخين "[46] .

فيجب على المفتي أن يتحرى في فتاواه المذهب الوسط الذي هو مقصود الشارع، والذي يجب أن يكون مسايرا ومتوافقا مع التشريع في كل مكان وزمان، وهو الذي يجعل هذه الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وتعبر عن حاجات البشر للتنظيم والاستقرار في كل أمور دنياهم ودينهم وفي عاجلهم وآجله.

وقد دلت الآيات الكثيرة والأحاديث على أن الوسطية والاعتدال مقصود الشارع في جميع مناحي التشريع الإسلامي سواء في باب العبادات أو في أبواب المعاملات المختلفة، فنجد هذه السمة الغالبة على الشريعة الإسلامية في الأحكام السياسية و العلاقات الدولية بين المسلمين أو مع غيرهم وينطبق

---

[43] الموافقات، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1 ص 315.
[44] مقاصد الشريعة الإسلامية ،ص 57-58.
[45] الشاطبي، ص 315.
[46] الشاطبي، ص 875.

الحكم على الأحكام القضائية و الحدود و العقوبات، وكذا في المعاملات المالية من بيوع وإجارة وغيرها، ونورد بعضا من النصوص ونكتفي بها لأن المقام لا يسمح بالإطالة ومن هذه الآيات :

1 –(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً)[47] فكلمة " الوسط " تعني العدل والخيار والأجود، وتعني الشهادة على الناس والوسطية بين الأمم [48]

2 – (ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)[49] أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة كما كلفت الأمم السابقة وقد جاء النبي ﷺ بدين حنيف سهل سمح [50] ويضع الإصر والأغلال التي كانت على الأمم السابقة.

3 – (وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)[51] ولا يخفى ما في هذا الأمر من التوسط والاعتدال في طلب الدنيا و العمل للآخرة والتوازن في حب ملذات الدنيا دون أن ينشغل عن الهدف الأصلي من الوجود وهو عبادة الله ورجاء ثوابه.

4 – (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً)[52] و الميل هو الابتعاد عن المنهج الوسط الذي هو الدين أو التشريعات الذي ارتضاها الله لعباده، فيريد الشيطان وأتباعه أن ينحرف المؤمن باتباع الشهوات[53].

5 – (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق)[54] الغلو هو تجاوز الحد، وقد تجاوز النصارى الحد في الغلو في عيسى عليه السلام فاتخذوه إلها وتجاوزت اليهود الحد في عزير فقالوا عزير بن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله يحلون لهم الحرام ويحلون الحلال[55] وقد نهى الله الأقوام السابقة عن ذلك، والتجاوز هو البعد عن الوسط والاعتدال الذي أمر به الله.

6 – (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)[56] وهذه الآية تأمر باتباع المنهج الوسط في المعيشة وفي الأكل والشرب ولذلك يحرم كل ما كان خارجا عن ذلك لأنه يدخل في التبذير والإسراف

---

[47] البقرة آية 143.
[48] ابن كثير أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1419، ج 1، ص 327.
[49] البقرة آية 286.
[50] ابن كثير، مرجع سابق، ج 1، ص 573.
[51] القصص آية 177.
[52] النساء آية 27
[53] ابن كثير، مرجع سابق، ج 2، ص 234.
[54] النساء آية 171
[55] ابن كثير، مرجع سابق، ج 2، ص 424.
[56] الأعراف آية 31

المنهي عنه.

7 -(واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)57 أي امش مشيا مقتصدا ليس بالسريع ولا بالبطيء أي وسطا عدلا بينهما وأمر بالاعتدال و التوسط في الكلام بعدم رفع الصوت فوق الحد الذي يحتاج إليه المتكلم والسامع.

وقد كان التوسط شأن رسول الله ﷺ وأصحابه الأكرمين، وقد نهى ﷺ عن التبتل فقد رُوي عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله رد على عثمان – أي ابن مظعون – التبتل[58]. "ونهى عن الوصال قالوا يا رسول الله إنك تواصل قال : إني لست كهيئتكم إني أُطعم وأُسقى "[59]

وقد عاتب رسول الله معاذ بن جبل رضي الله عنه على الإطالة في الصلاة وقال : " أفتان أنت يا معاذ "[60] وقد جاء في كثير من الأحاديث النهي عن الغلو والتشدد في الدين منها :

1– حديث (سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أن لن يُدخِل أحدَكم عملُه الجنةَ، وأنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى الله أدومُها وإن قلَّ)[61].

2 – حديث عَائِشَةَ–رضي الله عنها (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ قَالَ : مَنْ هَذِهِ، قَالَتْ فُلاَنَةُ. تَذْكُرُ مِنْ صَلاَتِهَا. قَالَ : مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لاَ يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ)[62]

3 – حديث : (أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة)[63] ومعنى الحنيف : المائل عن الشرك إلى التوحيد،و عن الغلو و الجفاء إلى الوسط[64]

4– عن عائشة رضي الله عنها : (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه)[65].

---

[57] لقمان آية 19

[58] البخاري كتاب النكاح باب مايكره من التبتل و الخصاء رقم 4687 ومسلم كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة رقم 1402.

[59] البخاري كتاب الصوم باب التنكيل لمن أكثر الوصال 1860، ومسلم كتاب الصيام باب النهي عن الوصال في الصوم 1102.

[60] البخاري أبواب صلاة الجماعة والإمامة باب إذا أطال الإمام وكان للرجل حاجة فخرج فصلى، ومسلم كتاب الصلاة باب القراءة في العشاء.

[61] البخاري كتاب الرقاق، باب القصد و المداومة على العمل رقم 6464.

[62] رواه البخاري كتاب الإيمان باب أحب الدين إلى الله أدومه ومسلم كتاب صلاة المسلمين وقصرها باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.

[63] رواه أحمد و الطبراني، و هو حديث حسن كما في صحيح الجامع 160.

[64] ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث، المكتبة العلمية، بيروت، د ط، 1979، ج 01 ص 451.

[65] البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي ص ومسلم كتاب الفضائل، باب مباعدة النبي للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته.

ويقول الشاطبي " وأيضا، فإن الخروج إلى الأطراف خارج عن العدل، ولا تقوم به مصلحة الخلق، أما في طرف التشديد فإنه مهلكة، وأما في طرف الانحلال فكذلك أيضا ؛ لأن المستفتي إذ ذهب به مذهب العنت والحرج بغَّض إليه الدين، وأدى إلى الانقطاع عن سلوك طريق الآخرة، وهو مشاهد، وأما إذا ذهب به مذهب الانحلال كان مظنة للمشي مع الهوى والشهوة، و الشرع إنما جاء بالنهي عن الهوى، و اتباع الهوى مهلك... "[66].

المبحث الثالث : مظاهر مراعاة الفطرة في الشريعة الإسلامية

المطلب الأول : التحليل والتحريم

من رحمة الله تعالى بعباده أن أحل لهم كل طيب وحرم كل خبيث وجعل التحريم والتحليل لعلل معقولة المعنى وحكم واضحة كلها ترجع إلى مصالح البشر أنفسهم، فلم يكن الحلال في شريعة الإسلام إلا طيبا، ولم يكن الحرام فيها إلا خبيثا، والطيب هو كل ما تستطيبه النفوس المعتدلة ويستحسنه الناس في مجموعهم استحسانا غير ناشئ من أثر العادة ، والخبيث ما تستقذره النفوس المعتدلة [67]، ولقد وصف الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة بأنه يأتي ليحل الطيبات ويحرم الخبائث قال تعالى : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[68].

فشريعة الإسلام نظرت إلى حاجات البشر ومطالبهم ومستلذاتهم فوضعتها على الطريق الصحيح الواضح فما كان طيبا نافعا أباحته وأذنت فيه وما كان ضارا مستقبحا نهت عنه ومنعته.

ومما يميز هذه الشريعة أنها أحلت الطيبات وحرمت الخبائث وقد كان جواب القرآن الكريم عن السؤال المتعلق بما أحله الله هو الطيبات قال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ)[69] وقال تعالى: (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ) [70] وقد بين العلماء أن الطيبات في هذه الآيات هي ما يستلذه آكله ويستطيبه أو ما تستطيبه النفوس السليمة الفطرة وهي غير الخبائث التي تنفر منها الطباع

---

[66] الشاطبي، ص 876.

[67] .ينظر القرضاوي يوسف، الحلال والحرام في الإسلام ، مكتبة وهبة ، القاهرة، ط 28 ، سنة 2004 ص 29، صالح بن عبد الله بن حميد، رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1 ، 2004 ص 132 و هبة الزحيلي ، أصول الفقه الإسلامي ، دار الفكر، دمشق، د ط، د ت ، ج 2 ص 861.

[68] .سورة الأعراف آية 157.

[69] .سورة المائدة آية 4.

[70] .سورة المائدة آية 5.

السليمة[71].

وكما أباحت الشريعة الإسلامية كل طيب وحرمت كل خبيث فقد سايرت فطرة الإنسان في ميله إلى اللهو والترفيه فأباحت أنواعا من اللهو البريء ورخصت في الترويح عن النفس كالمسابقة والرياضة البدنية والفكرية والفروسية وأنواع الصيد ولكنها قيدتها بقيود ونظمتها بشروط بحيث لا يخالطها القمار ولا تلهي عن ذكر الله والصلاة مما يجعلها تعود بالفائدة والنفع على الإنسان في بدنه وفي عقله وفي عبادته ، فتجدد له نشاطه وتبعد عنه الملل والركود ، وكما جاء في الأثر (روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب تمل) ويروى : (إن القلب إذا أكره عمي) وخاصة إذا كانت في أيام الأعياد والمناسبات، فقد روي أن جاريتين كانتا تغنيان عند عائشة رضي الله عنها في بيت النبي صلى الله عليه وسلم فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (دعهما يا أبا بكرفإنها أيام عيد) [72] وعن عائشة أنها قالت : رأيت رسول الله يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، وفي بعض ألفاظه أن عمر بن الخطاب أنكر عليهم فقال له النبي دعهم لتعلم اليهود أن في ديننا فسحة وأني أرسلت بحنيفية سمحة)[73].

وفي جانب آخر من جوانب إنسانية وواقعية الشريعة الإسلامية وموافقتها للفطرة الإنسانية أنها راعت طبيعة المرأة في حبها للتزين ورغبتها في التجمل والظهور بأحسن الصور فأباحت لها من الزينة واللباس ما لم تبحه للرجال كالتحلي بالذهب ولبس الحرير وأنواع الطيب التي تناسب جمالها وأنوثتها وذلك لا يكون للرجل لعدم مناسبتها لطبيعته وهذا يكشف لكل ذي عقل المعرفة الحقيقية بأغوار وخبايا النفس الإنسانية وتشريع ما يناسبها وما يصلحها.

المطلب الثاني: تشريع الزواج

لم تنظر الشريعة الإسلامية إلى الدوافع الجنسية باستخفاف أو استقذار كما فعلت بعض الديانات، ولم تسمح للإنسان أن ينطلق وراء شهواته وغرائزه ويستسلم لحيوانيته بدون قيد ولا نظام كما نادت به بعض الفلسفات والمذاهب الإباحية اليوم بل اتبعت نظام الزواج الذي يستطيع من خلاله إشباع غريزته وتلبية حاجاته الجنسية بطريقة نظيفة ومنظمة تضمن بقاء النوع الإنساني وتحفظ كرامة الإنسان وترفعه عن مستوى الحيوانية مراعية بذلك الفطرة البشرية في ميل الرجل للمرأة وميل المرأة للرجل.

فلقد خلق الله الذكر والأنثى وركب في كل منهما الميل للآخر وجعل في تركيبهما النفسي والجسمي والعقلي تلبية حاجات كل منهما في الأخر وفي ذلك حكمة من أعظم حكم الله سبحانه وتعالى في خلق

---

[71]. الشوكاني، فتح القدير، ج 2 ص 15 ، والألوسي ، روح المعاني مج 4 ج 6 ص 93 و الزحيلي ، التفسير النير ج 6 ص

[72]. البخاري كتاب العيدين باب الحراب والدرق يوم العيد رقم 907 ومسلم كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه رقم 1486.

[73] أحمد في مسنده، مسند الصديقة عائشة رضي الله عنها رقم 24855 حديث صحيح (الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، ج 4، ص 443).

البشر صورها القرآن الكريم في قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[74] فالله قد خلق الذكر والأنثى على هذه الصفة بحيث يلبي كل منهما الحاجات الفطرية للآخر فيجد الراحة والاستقرار والمودة والرحمة.

فالزواج هو الطريق الطبيعي الصحيح ، فإذا كانت الغريزة الجنسية حاجة فطرية تتطلب الإشباع، فإن ضرورة المحافظة على المجتمع تتطلب كذلك أن ترسم لهذه الغريزة الحدود حتى لا تطغى وتنطلق بلا حدود فتضيع حقوق المرأة وتهدر كرامتها وتدمر حياة الأطفال وتتلاشى الأسرة ويندثر المجتمع بأكمله، وخير شاهد على ذلك ما تعيشه المجتمعات الغربية التي عجزت عن حل مشكلة الأطفال غير الشرعيين وقد امتلأت بهم تلك المجتمعات حتى كثر عددهم وفاق عدد الأطفال الشرعيين، وإن هذه الحضارة كما عجزت عن حل مشكلة الأطفال غير الشرعيين فهي أعجز عن إقناع أفرادها بالالتزام بالزواج في العلاقة بين الرجل و المرأة.[75]

أما الذي يصادم الفطرة الإنسانية بتحريم الزواج أو استهجانه إنما يسبب للإنسان العنت والمشقة، ومن ثم يهوي به في مهاوي الرذيلة والإثم.

فالمنهج الذي شرعه الإسلام لإشباع الغريزة الجنسية لا يصادم الفطرة التي ركبها الله في الإنسان بل يحافظ عليها ويسلك بها المسلك القويم لإشباعها بطريق صحيح نظيف وفي ذلك أعظم تهذيب للإنسان وارتفاع بإنسانيته و بمشاعره وأحاسيسه إلى أرقى المراتب.

المطلب الثالث: تشريع الطلاق

وكما سايرت الشريعة الإسلامية الفطرة في تشريعها الزواج فإنها كذلك حافظت عليها في إباحتها للطلاق لأن في إباحته حفاظا على الأسرة والأولاد،فإذا كانت الحياة الزوجية تقوم على أساس من المودة والرحمة التي تسود العلاقة بين الزوجين من جهة وبين الأبوين والأبناء من جهة ثانية وإذا كانت العلاقة الزوجية تقوم على التفاهم والتعاون لا على المباغضة والتنافر، فإنه إذا ساءت العلاقة بين الزوجين وتنافرت القلوب ووصلت إلى درجة أصبحت غير قابلة للالتئام، وحل الشقاق محل الوفاق وساد النزاع بدلا من التعاون، فإن الحياة على مثل هذه الحال تصبح جحيما لا يطاق ونارا يكتوى بها كل فرد من أبناء الأسرة، فلا يقتصر ضررها على الزوجين فقط بل يمتد لهيبها إلى الأبناء فما أشد ما يعانيه الأطفال من هذا الواقع المرير وما ينعكس على أخلاقهم وعواطفهم وأحاسيسهم، وبالتالي يكون الاستمرار في هذه العلاقة إضرارا بالأسرة والمجتمع على حد سواء، وكان إنهاء هذه العلاقة أحسن

---

[74]. سورة الروم آية 21.

[75]. محمود أحمد الزين ، القرآن إعجاز تشريعي متجدد ،دار البحوث الإسلامية وإحياء التراث، دبي ،ط 1 سنة 2004 ، ص 172 .176.

علاج لهذه المشكلة قال تعالى : (وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً)[76] ويكون الإنهاء أولى من الإبقاء ويصبح الطلاق أمرا غير محظور[77].

لقد ذهبت النصرانية إلى تحريم الطلاق وخالفت ما سبقها من تشريعات، وتتفق المذاهب النصرانية على ذلك مع اختلافات يسيرة وتنص على : (أن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان) و (إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج أخرى يزني والذي يتزوج بمطلقة يزني)[78].

يقول بنتام في كتابه "أصول الشرائع": (إن حرية الزواج أقل ضررا من الأسر فيه، وإذا وجد الطلاق عند أمة كثر فيها الافتراق الظاهري وقل الافتراق الحقيقي)[79].

وترى مدام فوسكاف : (أن في إباحة الطلاق منجاة للمرأة من حياة التهتك)[80].

لقد نتج عن هذا التضييق أن تمرد المسيحيون على تعاليم الكنيسة لأنها تطلب من أتباعها أن يكونوا متصفين بصفات غير صفات البشر وتتجاوز حاجاتهم و ضرورياتهم، فاضطروا إلى وضع القوانين المدنية تلبية لمصالحهم وتحقيقا لرغباتهم وأباحت لهم هذه القوانين الطلاق ليستطيع الزوج أو الزوجة أن يخرج من السجن المؤبد الذي فرضته الكنيسة التي حرمت الطلاق حفاظا على كيان الأسرة ولكنها لم تضع في حسبانها المشكلات التي تنجر عن ذلك وبدلا من أن يحفظ تحريم الطلاق الأسرة هدمها وانحرفت الزوجة وضاع الأولاد، واضطرت الكنيسة إلى إباحة الانفصال، لأن الحياة لا تستقيم بغير ذلك.

المطلب الرابع: تشريع الملكية الفردية

طُبع الإنسان على حب نفسه فتراه يسعى لجلب كل ما يعتقد أنه خير لها فيسعى لجمع المال والمتاع ، هذا طبع خلق عليه الإنسان فاستحق أن يوصف في القرآن الكريم بقوله تعالى : (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)[81] وبقوله: (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)[82] واعترافا بهذه الفطرة المغروسة في الإنسان وبالدوافع الغريزية في حبه للتملك أباحت الشريعة الإسلامية أن يملك ما شاء من أموال وخيرات، ولكنها أحاطتها بسياج من القيود والضوابط التي تحد من خطر طغيان هذه الغريزة، وذلك بعد ما أمدته بحقائق الإيمان بالله ليعترف بفضله عليه ويشكره ويؤدي حق الله وحق العباد فيه ويتطهر من شحه وأنانيته ويوجه هذه النعمة الوجهة الصحيحة في خدمة ومصلحة الجماعة كلها.

لقد جاءت الفلسفة الشيوعية وأهملت هذه الفطرة في الإنسان وجردت الفرد من كل ملكية

---

[76]. سورة النساء آية 130.

[77]. أبو زهرة محمد ، المعجزة الكبرى القرآن دار الكتاب العربي ، القاهرة ، د ط، د ت ، ص 450.

[78]. عمر رضا كحالة ، الطلاق (سلسلة بحوث اجتماعية) مؤسسة الرسالة، بيروت، د ط ، 1977 ، ص 22.

[79]. نقلا عن: نور الدين عتر، أبغض الحلال ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط 4 1985 ، ص 171.

[80]. نور الدين عتر ، المرجع نفسه ص 173 ،

[81]. سورة العاديات آية 8.

[82]. سورة الفجر آية 20.

وجعلتها في يد الدولة تمهيدا. في زعمها لتحقيق الشيوعية التي تزول فيها الدولة وتصبح الملكية مشاعة ولكن هذه الأفكار ما لبثت أن زالت تحت تأثير الواقع وتراجعت المجتمعات الاشتراكية عن تلك المبادئ وأقرت الملكية الفردية لوسائل الإنتاج بعد ما كانت تنفي ذلك نفيا مطلقا.

ومرة أخرى يرينا التاريخ والواقع حقيقة من حقائق التشريع الإسلامي ومزية من مزاياه وهي إباحته للتملك تماشيا مع الفطرة وفي ذلك طريق لشحذ الهمم وفتح المجال للتنافس في عمارة الأرض وتطوير الإنتاج تلبية لحاجيات المجتمع، وإن منع الملكية هو قتل للإرادة الإنسانية وقضاء على روح المبادرة والإبداع والمنافسة، وهو دعوة للكسل والخمول وتجريد للإنسان من كل دافع يدفعه إلى بذل المزيد من العمل والجهد.

المطلب الخامس: تشريع العقوبات

تهدف الشريعة الإسلامية إلى تطهير المجتمع الإنساني من الجرائم ، وتسعى إلى ذلك بأنواع عديدة من للتربية الإيمانية والخلقية لتكوين الفرد الصالح الذي يسهم في بناء المجتمع الصالح بكل خصائصه ومقوماته ، فتغرس في نفس الفرد الإيمان بالله وتبث فيه روح المراقبة لله والخوف منه ليسير على نهج من الأخلاق العالية والمعاملة المثالية لأهله وإخوانه ، بل للناس أجمعين.

غير أن هذه التربية وهذا التوجيه لا يكون صالحا لكل الأفراد فيوجد أناس لا تنفعهم الموعظة ولا يجدي معهم النصح والإرشاد ولا يرتدعون إلا بالضرب على أيديهم وذلك بتوقيع العقاب حين يقترفون ما يقترفون من جرائم وانتهاكات لنظام المجتمع ، ولذلك كان سوط السلطان مقرونا بصوت القرآن وكما روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)[83] ومن هنا أوجبت الشريعة الإسلامية العقوبات المختلفة من حدود و تعازير عقابا للمجرم وتطهيرا للمجتمع تماشيا كذلك مع الفطرة البشرية في ضرورة التربية بالعقوبة التي تجب حين لا ينفع غيرها، ومشت في ذلك بالعدل على أدق المقاييس.

فالأصل في تشريع العقوبات أن تقدر العقوبة بقدر الجريمة و خطورة المجرم وبحسب ضررها على الأفراد والمجتمعات ، وذلك أن العقوبات شرعت للضرورة وهي إصلاح المجرم ودفع الفساد عن المجتمع وهذا مقتضى العدالة التي جاء بها الإسلام حيث يقول الله تعالى: (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا)[84]، وتتجلى هذه المساواة أكثر ما تتجلى في جرائم القصاص الذي هو: " أن يفعل بالجاني مثل ما فعله بالمجني عليه "[85] فهي أعدل العقوبات إذ لا يجازى المجرم إلا بمثل فعله بل هي أفضل العقوبات

---

[83] عن مالك عن عثمان (ابن عبد البر،التمهيد، وزارة الشؤون الإسلامية المغربية، 1967،ج 1، ص 118).

[84]. سورة الشورى آية 40.

[85] . عبد القادر عودة ، التشريع الجنائي الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت ، ط 14 ، 2000 ، ج 1 ص 663 و عبد الكريم زيدان ، القصاص والديات في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة ناشرون ، بيروت ، ط 1، 2002 ، ص 14.

للأمن والنظام فالمجرم الذي يعلم أنه سيجزى بمثل فعله لا يقدم على ارتكاب الجريمة غالبا.

ويظهر التناسب بين الجريمة والعدالة في توقيع العقاب في جرائم التعازير، وهي الجرائم التي لم تضع الشريعة لها عقوبات مقدرة تاركة بذلك المجال للقاضي. أو المشرع في كل زمان. لاختيار العقوبة الملائمة لدرجة الجريمة وحالة وخطورة المجرم، ضمانا للعدالة،حيث أن ظروف الجرائم وأحوال المجرمين تختلف اختلافا كبيرا فما يصلح مجرما قد لا يصلح مجرما آخر، وما يردع شخصا قد لا ينفع مع شخص آخر.

ولهذا كانت العقوبة في الشريعة الإسلامية قائمة على واقعية علمية وفنية تامة الضبط والإحكام لأنه مما لاشك فيه أن العقوبة التي تقوم على أساس العلم بالطبيعة البشرية وفهم لنفسية المجرم هي العقوبة التي يكتب لها النجاح في القضاء على الجريمة ، لأنها تحارب الإجرام في نفس الفرد وداخله قبل أن تحاربه في حسه وظاهره، الأمر الذي يجعل الشخص يبتعد عن مجرد التفكير في اقتراف المنكر[86] وهذا هو سر النجاح الذي حققته الشريعة الإسلامية في القضاء على الجريمة أو التقليل منها لأنها وضعت على أساس موافقة الفطرة الإنسانية.

المطلب السادس: التيسير ورفع الحرج

لقد بنيت شريعة الإسلام على التيسير ورفع الحرج في أحكامها كلها من عبادات ومعاملات، فسارت على ما يطيقه الإنسان من أعباء دون عناء ومشقة ، وذلك نظرا لضعفه من جهة وكثرة أعبائه والتزاماته المعيشية ، فإنها لو شرعت على خلاف ذلك لأدى به إما للانقطاع عنها نهائيا أو إلى التقصير فيها، يقول الإمام الشاطبي : (اعلم أن الحرج مرفوع عن المكلف لوجهين :

أحدهما: الخوف من الانقطاع من الطريق، وبغض العبادة، وكراهية التكليف، وينتظم تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه في جسمه أو عقله أو ماله أو حاله.

والثاني : خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع مثل قيامه على أهله وولده....إلى تكاليف أخرى فربما كان التوغل في بعض الأعمال شاغلا عنها وقاطعا للمكلف دونها، وربما أراد الحمل للطرفين على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنها)[87].

فالشريعة الإسلامية شريعة سمحة سهلة أراد الله أن يرفع بها العنت والمشقة على عباده ويحببها إليهم بهذا التسهيل والتيسير ويزينها لهم كما حبب لهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، قال تعالى : (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ

[86]. جمعة علي الخولي، الحدود في الإسلام (مجلة الجمعية الإسلامية) المدينة المنورة عدد 50 ص 142.
[87] الموافقات، ص 298.

حَكِيمٌ)[88] ، فكان اختيار الله وفضله في تشريع الأحكام على علم منه تعالى وحكمة لعلمه بهذا الإنسان وما يصلحه ولذلك جاءت كثير من الآيات في القرآن الكريم تنفي الحرج والمشقة عن الشريعة وتثبت لها اليسر والسهولة مباشرة بعد تشريع أحكام الطهارة أو الصيام أو الحج أو أحكام الأسرة، قال تعالى : (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا) [89] وقال : (لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ)[90] وقال تعالى بعد آيات تشريع الصيام وفرضه على عباده مبينا أن الهدف من التكليف به هو إتباع أمر الله لا قصد المشقة الناجمة عن الصيام : (يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)[91] ، وبعد آيات الطهارة جاء التنبيه على رفع الحرج في ذلك : (مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[92] وفي ختام سورة الحج : (هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)[93]

ويقول عليه الصلاة والسلام : (خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا)[94]، إن العبادات المفروضة سهلة ميسرة فالصلاة تؤدى خمس مرات في اليوم والليلة وكلها أعمال خفيفة لا تأخذ وقتا طويلا ولا تتطلب جهدا كبيرا كما أنها تخف لاعتبارات كثيرة كالمرض والسفر والزكاة العبادة المالية لا تجب إلا بنسبة يسيرة من المال الزائد عن الحاجة والصيام بالرغم ما فيه من بعض المشقة فهي ليست مشقة خارجة عن المعتاد ، ومع ذلك فإنه لا يجب على المريض والكبير ويباح للمسافر الإفطار ، أما الحج العبادة البدنية والمالية في الوقت نفسه فلا يجب إلا على المستطيع ماليا وبدنيا [95].

أما المعاملات فليست أقل تيسيرا وتسهيلا من العبادات فبالإضافة إلى الآيات السالفة الذكر قرر فقهاء الشريعة الإسلامية في هذا الشأن قواعد فقهية تنبني عليها كثير من مسائل الترخيص منها قاعدة : " المشقة تجلب التيسير " و " إذا ضاق الأمر اتسع " و " الضرورات تبيح المحظورات " [96] ومن أنواع المشاق التي تتطلب الترخيص والتيسير : السفر والمرض والإكراه والنسيان والجهل في بعض المسائل والعسر وعموم البلوى والنقص بالنسبة للصغير والمجنون و المرأة في بعض المسائل.

هذا وإن من مقاصد الشريعة منع التنطع والتشدد والتعمق في الدين لكيلا يظن بعض الناس أن

---

[88]. سورة الحجرات آية 7. 8

[89]. سورة البقرة آية 286.

[90]. سورة البقرة آية 233.

[91]. سورة البقرة آية 185.

[92]. سورة المائدة آية 6.

[93]. سورة الحج آية 78.

[94] . البخاري كتاب اللباس باب الجلوس على الحصير ونحوه رقم 5524، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره رقم 782

[95]. صالح بن عبيد الله بن حميد، المرجع السابق ص 124.

[96]. الشيخ أحمد الزرقاء، شرح القواعد الفقهية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1983 ، ص 105. 112 ، 131.

ذلك من الفرائض فيلتزموا بها ، وربما يؤدي ذلك الالتزام مع مرور الزمن إلى استثقالها ويدخل الحرج على الناس ثم ينحرفوا عنها ويتركوا العبادة بجملتها ويضيعوها كما فعل النصارى في ابتداعهم الرهبانية في أول الأمر عبادة وتطهرا وتجردا لله ولكنها انتهت في آخر أمرهم أن أصبحت طقوسا وأشكالا لا روح فيها واتخذوها مظهرا عاريا من حقائق العبودية لله ، قال الله تعالى : (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)[97].

إن السمة البارزة لهذه الشريعة أنها جاءت سهلة يسيرة تبعد عن الناس كل حرج ومشقة في أحكامها المختلفة سواء في باب المعاملات أو في العبادات متماشية مع فطرة الإنسان في ضعفه وعدم قدرته على كثرة الالتزامات من جانب وانشغالاته بطلب الرزق والعمل من جانب آخر في هذه الحياة، ثم إن الله تعالى رحمة بالإنسان جعل تلك الواجبات الحياتية في طلب المعيشة والأعمال المختلفة نوعا من القربات يتقرب بها العبد من ربه إذا أخلص نيته وأراد بها الاستعانة على الطاعة.

خاتمة

وفي ختام هذا البحث نصل إلى النتائج التالية :

1 – الفطرة الإنسانية هي الاستعدادات والميول و الغرائز التي تولد مع الإنسان دون أن يكون لأحد دخل في إيجادها وهي التي تجعل الإنسان قابلا للإدراك والفهم ويكون مستعدا للإيمان بالله.

2 – الوسطية هي الاعتدال والتوسط والتوازن في أمور الحياة كلها من تصورات ومناهج ومواقف.

3 – أن الشريعة الإسلامية جاءت على الطريق الوسط في التشريع والأخلاق و العقائد متماشية مع فطرة الإنسان وميولاته وغرائزه.

4– أن للشريعة الإسلامية مقاصد وغايات ومن مقاصدها التوسط والاعتدال لتقوم حياة الناس على استقامة ونظام.

5 – إن من مقاصد الشريعة الإسلامية مراعاة الفطرة الإنسانية والمحافظة عليها، فالله الذي خلق الإنسان هو الذي أنزل القرآن فكانت الشريعة الإسلامية مراعية لفطرة الإنسان ومتناغمة مع ميولاته، قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)

التوصيات :

1– دراسة المقاصد الشرعية وبخاصة المقاصد الخاصة و الجزئية لمختلف الأحكام الشرعية في المعاملات والأسرة والسياسة و الاقتصاد.

2 – إبراز وسطية الإسلام من خلال الأبحاث والرسائل الجامعية في الفقه و التفسير والسيرة النبوية.

3 – نشر ثقافة الوسطية في الوسط الجامعي و في أوساط الشباب عامة للوقاية من الأفكار المتطرفة البعيدة عن ثقافتنا وأصالتنا.

---

[97]. سورة الحديد آية 27.

قائمة المراجع :

1. ابن عاشور الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس، د ط،سنة 2006.
2. ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث، المكتبة العلمية، بيروت، د ط، 1979.
3. ابن الجوزي عبد الرحمان، زاد المسير في علم التفسير، دار الفكر، بيروت ، ط 1، سنة 1987،
4. ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار الكتب العلمية، بيروت ط 3 د ت.
5. ابن عاشور الطاهر، تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، د ط، سنة 1984
6. ابن عبد البر،التمهيد، وزارة الشؤون الإسلامية المغربية،1967.
7. ابن عطية، المحرر الوجيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، د ت.
8. ابن فارس أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، د ط، 1979.
9. ابن كثير أبو الفدا إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1419.
10. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د ط، د ت.
11. أبو زهرة محمد، المعجزة الكبرى القرآن دار الكتاب العربي، القاهرة، د ط، د ت.
12. جمعة علي الخولي، الحدود في الإسلام (مجلة الجمعية الإسلامية) المدينة المنورة عدد 50.
13. الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1،2004.
14. الشوكاني محمد بن علي، فتح القدير، دار ابن كثير، بيروت، ط 1، 1414. والألوسي شهاب الدين محمود، روح المعاني تحقيق عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415 ه،
15. صالح بن عبد الله بن حميد ، رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1 ، 2004
16. عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط 14، 2000.
17. عبد الكريم زيدان، القصاص والديات في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط 1، 2002
18. علال الفاسي مقاصد الشريعة ومكارمها، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 05، 1993.
19. عمر رضا كحالة ، الطلاق (سلسلة بحوث اجتماعية) مؤسسة الرسالة، بيروت، د ط ، 1977 ،
20. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت ط 1 سنة 1995
21. القرضاوي يوسف، الحلال والحرام في الإسلام ، مكتبة وهبة ، القاهرة، ط 28 ، سنة 2004
22. القرضاوي يوسف، فقه الوسطية الإسلامية والتجديد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 2، 1999.
23. القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ط ، د ت.
24. الكشاف ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3 ، سنة 1987.
25. محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ط 2، 2009.
26. محمود أحمد الزين،القرآن إعجاز تشريعي متجدد، دار البحوث الإسلامية وإحياء التراث، دبي ،ط 1 سنة 2004
27. الخادمي نور الدين، الاجتهاد المقاصدي حجيته ضوابطه مجالاته، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، رقم 65 سنة 1998،
28. نور الدين عتر، أبغض الحلال ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط 4 1985.
29. النووي أبو زكريا يحي، صحيح مسلم بشرح النووي دار الفكر، بيروت، د ت،
30. وهبة الزحيلي ، أصول الفقه الإسلامي ، دار الفكر، دمشق، د ط، د ت ، ج 2 ص 861.
31. وهبة الزحيلي، التفسير المنير، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1418 ه.
32. اليوبي محمد سعد، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، دار الهجرة، الرياض، ط 1، 1998.